الشـــــرور والآلام..

هل تنافي الحكمة والعدل الإلهيين؟ ـ٢ـ

إعداد: عبد الله محمد أمين

نتابع في هذا المقال ما بدأناه في الحلقة الماضية حول معنى الشرور وحقيقتها وحول اتصافها بالعدمية والنسبية، والمواقف المختلفة تجاهها، ثم إيضاح علاقة الشرور والآلام بالحكمة والعدالة الإلهية، وربطاً بما سبق، نتناول في هذه الحلقة النقاط التالية:

كلية النظام الكوني

إن مسألة الارتباط الوثيق بين الأشياء في الوجود وعدم قابليتها للتجزئة والفصل وكذلك عدم وجود إمكانية للفصل بين الخيرات والشرور ــ كما مر معنا في المقال السابق ــ نجد تأييداً لها وتوضيحاً في النظرة الشمولية الكلية للكون، حيث النظام فيه قائم على اجتماع الأضداد وتناسقها وتناغمها، فإن الأشياء من حيث الحُسن والقبح، لها حكم مختلف عندما ننظر إليها على أنها مستقلة عن بقية ما تتعلق به، عمّا إذا نظرنا إليها على أنها جزء من كل وعضو في مجموع، حينئذٍ فإن لها حكماً آخر قد يكون مضاداً للحكم الأول تماماً.

ففي كل مجموعة من الموجودات، يحتل أي جزء منها موقعاً خاصاً، وبحسب ذلك الموقع تكون له كيفية خاصة، يمكن عندها وصفه بها بالحسن أو القبح.

يقول الشاعر الحكيم: "إن الهجوم كان جميلاً من الأسد، ومن الغزال الهروب جميل".

وإذا نظرنا إلى الكون بشكل كلي فلا نجد أمامنا إلا النظام والتوازن العام مع وجود الاختلاف والتفاوت، فهناك المنخفضات في مقابل المرتفعات، والظلمة مقابل النور، والألم واللذة، والتوفيق والخيبة، ولولا هذا الاختلاف والتفاوت لم توجد الكثرة ولا التنوّع، ولفقد النظام مفهومه، فلا توجد عندئذٍ المجموعة المتناسقة الجميلة، ولا المجموعة القبيحة... وتنحصر عظمة الكون وجماله في تنوّعه العريض، والقرآن الكريم يتخذ وجود الاختلاف

اعتمد هذا المقال بشكل أساس على كتابي "العدل الإلهي" و"التوحيد" للعلامة الأستاذ الشيخ مرتضى مطهري، وعلى بعض بحوث تفسير الميزان للعلامة الأستاذ السيد محمد حسين الطباطبائي (رحمهما الله).

علامة على قدرة الحكيم العليم... من قبيل اختلاف الألـــوان والألســـنة والليـــل والنـــهار واختلاف الناس.

قُبح الشرور يظهر حسن الخيرات

فضلاً عن ضرورة الشرور كونها جزءاً من النظام الكلي للكون، فإنها لازمة أيضـــاً لإظهار الأشياء الجميلة والخيّرة، فلولا المقابلة بين القـبُح والحُسن، والشر والخـــير، لـــم يوجد قبيح ولا جميل، ولا شرير ولا خيّر، فلو كان الناس كلهم متّصفين بالجمال، لم يكـــن أحد منهم جميلاً، ولو كانوا جميعهم قبيحين، لم يكن هناك قبيح واحد، وكذا بالنســـبة إلـــى أهل الخير والشر، فالناس ينجذبون نحو ذوي الجمال لأنهم يرون ذوي القبـــح فيشـــيحون بوجوههم عنهم، ولو لم تكن الجبال لم توجد وديان ولم ينحدر ماء، فمن السذاجة أن يفكّـــر الإنسان بكون أفضل، كل شيء فيه سواء، ويُظن أن مقتضى الحكمة والعـــدل أن تكـــون الأشياء بشكل واحد. والحال أن كونها كذلك يؤدي إلى انعدام كل حســـن وجميـــل وكـــل حماس وتحرّك وكل سير وتكامل.

وبمقتضى النظام الكلي للكون، منح الله تعالى كل موجود وجوده وأعطاه ذلك المقـدار من الكمال والخير والجمال، الذي يستطيع أن يستوعبه، أما النقص فيحـــدث مـــن جهـــة الموجودات نفسها وليس من جهة الفيض الإلهي.

فخَلْقُ زيد قبيحاً ــ مثلاً ــ ليس فائدته أنه كان من الممكن خلقه جميلاً ولكنـــه خُلـــق قبيحاً من أجل إظهار حسن عمرو، حتى يُقال لماذا لم يكن الأمر بالعكس؟ وإنما معناه أنـــه في الوقت الذي ينال فيه كل موجود أكبر قدر من الكمال والجمال والخير، الذي يســـتطيع استيعابه، فإن آثار الحُسن تترتب على هذا الاختلاف، من قبيـــل إيجـــاد قيمـــة الجمـــال والانشداد إليه.

فالله تعالى أوجد الموجودات وهي في حد ذاتها مختلفة، ولم تكن هذه كلها متشابهة ثـم جعلها الله بعد ذلك مختلفة.

وللقرآن الكريم في هذا المجال تعبير رائع، فهو ينقل عن موسى (ع) وهارون قولـهما عندما سألهما فرعون: من ربكما؟ فأجابا: ﴿**ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثـــم هـــدى**﴾ [طه: ٥٠].

ويستفاد من هذه الإضافة أن لكل شيء خلقاً خاصاً به وحـــده، أي أن كـــل موجـــود يستطيع فقط أن يقبل لوناً واحداً من الوجود، والله سبحانه يمنحه ذلك اللـــون نفســـه، ولا ينبغي الظن بأن الأشياء كانت على شكل آخر ثم أخرجها الله بهذه الصورة الحالية، أو كان من الممكن خلقها بشكل آخر أفضل أو أسوأ مما هي عليه الآن، ولكن الله تعالى اختار هذا الشكل بالخصوص على الرغم من الإمكانات الأخرى، والحقيقة أن الكون بهذه الصـــورة التي هو عليها يمكن أن يوجد، وكل جزء من أجزائه أيضاً يتمتع بإمكانية خلق خاص بـــه،

والله سبحانه أوجد تلك الإمكانية نفسها في الجزء كما في الكل، فلم تعط الأصالة والأفضلية في عملية الخلق للكل على حساب الجزء... فرحمة الله لا تحرم موجوداً مما هو مستعد له، وكل موجود بمقدار ما يحتمل ويستوعب ينال من رحمة الله... وهذا ما يدفع أي وهم وتفكير بأن هناك ظلماً أو ترجيحاً للكل من قبل الله سبحانه على حساب الجزء.

ولكن هل أن القول ــ كما مر ــ بضرورة وجود التفاوت والاختلافات في الخلق، الذي غايته إبراز حقيقة الخير والجمال، يجيب عن الإشكال المطروح حول الشرور والآلام؟ حيث يمكن للمنتقص حقه أن يعترض ويقول: إذا كان النظام الكلي يستوجب أن يكون أحدنا كاملاً والآخر ناقصاً، فلماذا إذاً خُلقتُ أنا ناقصاً والآخر كاملاً، لماذا لا يكون العكس؟ وكذا يمكن للقبيح أن يقول: لماذا أنا خُلقت قبيحاً وفلان جميلاً، لماذا لا يكون العكس؟

وعلى هذا فلا يحل الإشكال، أن نقول إن النظام الكلي للكون يستوجب وجود القبيح والجميل ووجود الكامل والناقص، فلا بدّ من إضافة أمر آخر لهذا المعنى، وهو أن مسألة الفائدة أو المصلحة، التي ذكرت للشرور والقبائح، هذه كلها فرع للحقيقة التي لا بد أن نستوعبها، وهي أن رابطة العلل والأسباب بالمعلولات والمسببات، ورابطة المقدمات بالنتائج، كلها روابط ضرورية وسنن إلهية غير قابلة للتغيير.

المصائب مقدمات للسعادة

إلى جانب ما مرّ من دور الشرور والمصائب والقبائح في إظهار معاني الجمال والخير، فإنها مقدمات ضرورية أيضاً لوجود الأشياء الجميلة، ففي أعماق الشدائد والمصائب تكمن السعادة والرفاه، كما يمكن أن يحصل العكس، فالمصائب تكمن أحياناً في أعماق السعادة... وهذا هو أسلوب الكون كما تعبّر عنه الآية الكريمة: ﴿**يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل**﴾ [الحج: ٦١].

ففي أعقاب الليل البهيم تشرق أنوار النهار، وهناك تلازم قطعي بين تحمّل المسؤولية وعذاباتها وآلامها وبين نيل السعادة والكمال.. فالألم إذاً شيء معقول وهو علامة الحياة، والدافع للتقدم والإصلاح، وكما يقول صاحب "قصة الحضارة" ويل ديورانت: "إن تاريخ العالم ليس ميداناً للسعادة والرفاه، فهذه السعادة لم تكتب سوى الصفحات الساكنة الخالية من الروح، وهي لا تليق بإنسان يحترم ذاته، بينما الأدوار المتميزة في التاريخ، صنعت بالاقتحام والصراع والألم".

والقرآن الكريم يبيّن التلازم بين الشدة والسهولة في قوله تعالى: ﴿**فإن مع العسر يسرا ❁ إن مع العسر يسرا**﴾ [الإنشراح: ٥ــ٦]. فهو لا يريد لنا أن نتوهم أن بعد الشدة

يأتي العسر، بل مع الشدّة يسر، أي أن اليسر موجود في أعماق الشدّة والتعب والعذاب ومقارن للألم، كما يقول الشاعر "مولوي": "الضدّ مخفي في ضدّه".

من هنا فإن المصائب والشدائد ضرورية لتكامل الإنسان وتقدمه، فلولا تلك المحن والآلام لارتمى الإنسان في أحضان الفساد والضياع، وإلى هذا المعنى تشير الآية الكريمة: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان في كَبَد**﴾ [البلد: ٤]. أي أننا خلقناه وسط الآلام، فلا بد أن يتحمل الإنسان المشقات ويعاني المصائب حتى يظفر بما يليق به، يقول تعالى: ﴿**ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص في الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين**﴾ [البقرة: ١٥٥].

فالشدائد تصبح ذات أثر جيد عند الذين يقاومونها ويصمدون أمامها... لذا وفر الله تعالى برنامجين متكاملين لإعداد الإنسان وتربية روحه وتكميل نفسه، وتحتل الشدائد مكاناً لها في كلا البرنامجين، وهما أولاً النظام التكويني الذي يشمل أنواع الجوع والخوف والخسارات في الأموال والأنفس والأقوات، وثانيهما المنهاج التشريعي الذي يتضمن أنواع العبادات والتكاليف الشرعية، وكلها شدائد الهدف منها أن يواجه الإنسان هذه الصعوبات حتى يتعلم طريق التخلص منها.

البلاء لطف إلهي وتربية للذات

من هنا فإن التدبير الإلهي يعتبر أن البلاء لطف من الله وليس نقمة أبداً، وهو يختص به أيضاً أعز خلقه وأشرفهم، جاء في حديث للإمام محمد الباقر (ع): "**إن الله عز وجل إذا أحبّ عبداً غتّه بالبلاء غتّاً**"، كما روي عنه قوله: "**إن أشدّ الناس بلاء الأنبياء، ثم الذين يلونهم، ثم الأمثل فالأمثل**".

وهذه النظرة الإيمانية الواقعية، ترى أن البلاء لأحباء الله لطف مغلف بالعذاب والألم، كما أن النِعم والعافية للضالين، الذين هم مورد غضب الله، هي عذاب بصورة نِعم وقهر بصورة لطف، وتشدّد هذه النظرة على الأثر التربوي المهم للصعوبات والشدائد، فترى أنها مربية للفرد وموقظة للأمم، فهي تعيد الوعي للنائمين وتحرّك العزائم والإرادات، أما الطالبون للراحة، والذين يرغبون بحياة رغيدة مترفة دائماً، فهم تابعون بائسون.

ومن فوائد البلايا والشدائد، التي يتبرّم منها بعض الناس، أنها تنمّي في النفس الرضى بقضاء الله والفرح بما يأتي منه...

يقول الشاعر الحكيم سعدي بما معناه: "أصحاب النظرة الضيقة دائماً يطلبون الراحة، أما العارف فهو يجد راحته في البلاء". كما يقول: "وكل امرء يقتل بسيف الحب، قل له لا تغتم فإن ديّتك ملك الأبد، فكل شيء آت من يد الحبيب حلو، يا سعدي لا تطلب رضى نفسك فالرضى الحقيقي هو رضاه". وجاء في بعض الأدعية المأثورة: "**اللهم إني أسألك صبر الشاكرين لك**"، فصبر الشاكرين ليس مراً بل هو حلو كالشهد. وعليه يقول الشاعر

العارف مولوي: "لو نظرنا بصفاء لرأينا البلاء حلواً، فالدواء المرّ حلو في الفم لأنه يحقق الصحة".

نسبية البلاء والنعم

إن المصائب مثلها مثل النعم، يمكن أن تكون سبباً لسعادة ما، كما يمكن أن تكون باعثاً على البؤس، فلا الفقر بؤس مطلق ولا الثروة سعادة مطلقة، فما أكثر ما كان الفقر دافعاً نحو الحركة والعمل والتقدم، وما أكثر ما كانت الثروة سبباً للبؤس والنكبات، فالنعم والبلايا، من الممكن أن تكون إذاً من الهبات، لأن كلاً منها نستطيع أن نستفيد منه فائدة جليلة، ومن الممكن أن تكون من المصائب وسوء الحظ وذلك عندما تصبح باعثة على السقوط والخسران.

ولذا فالإنسان يمكن أن يصل إلى السعادة المنشودة عن طريق الفقر وعن طريق الثروة أيضاً، كما يمكنه أن يصل إلى البؤس عن طريق الفقر وعن طريق الثروة... وكذا يمكن أن نسحب هذه الثنائية القائمة على التضاد بين ما نسميه نعماً وبلايا على أمور أخرى مثل الأمن وفقدان الأمن والسلامة والمرض وغيرها

فكون الإنسان منعماً منوط بردّ فعله إزاء النعم، هل هو شكور أم كفور؟ وكونه بائساً يرتبط برد فعله إزاءها هل هو صابر أم هو مسلوب الإرادة تجاهها؟

ومن هذا يظهر أن شيئاً واحداً بالنسبة إلى شخص ما يعدّ نعمة وهو ذاته بالقياس إلى شخص آخر يعد نقمة، وهذا معنى كون النعمة والبلاء أمرين نسبيين.

والشيء المؤكد أنه من البلاء، هو العقوبة الإلهية المعنوية، أي الآثار السيئة لعمل الإنسان، فهذه مصائب واقعية، لأنها معلولة لإرادة الإنسان واختياره وهي غير صالحة أبداً لتصبح مقدمة لخير أو كمال، فمثلاً قسوة القلب وتحجّره في الإنسان بلاء حقيقي وليس نسبياً، فلقد جاء في الرواية: "**ما ضرب الله عبداً بعقوبة أشد من قسوة القلب**".

فالنكبات الواقعية إذاً إنما هي نتائج وآثار عمل الإنسان نفسه، تقول الآية الكريمة: ﴿**وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾ [النمل: ١١٨].

فالمصائب والبلايا كلها نعم عظيمة لا بد من تقديم الشكر لله عليها... إنها نعم تجلّت بصورة مصائب، كما تتجلّى المصائب أحياناً بصورة رحمة، وما يعيّن كون النعمة نعمة فعلاً وكون النقمة نقمة فعلاً، يرتبط بنوعية رد فعلنا إزاءها... فنحن نستطيع أن نبدل جميع النِقم إلى نِعم ونحن قادرون أيضاً أن نبدل جميع النعم إلى مصائب.